ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ٥ شارع ماسبيرو — القاهرة

الإهـــداء

إلى التى جعلت حياتى أملاً بعد يأس ، ونوراً بعد ظلام ، وفرحاً بعد ترح ، وهناءة بعد حرمان .

إلى التى أذهبت عنى الكآبة والحزن ، وأنستنى صنوف الآلام ، وغمرت نفسى بالجذل والحبور ، والبهجة والسرور . وملأت فراغ قلبى بأجمل الأحلام .

إلى التى عودتنى الصبر والجلد ، وعرفتنى طريق الكفاح — طريق الفوز والنجاح .

إلى التى أفاضت علىّ من روحها قوة ومضاء ، وعزيمة واجتهاداً . ثم إيماناً وطيداً بمستقبل مشرق بسام .

إلى زوجتى المخلصة الوفية أهدى باكورة إنتاجى العلمى والأدبى .

إليها وحدها أهدى هذا الكتاب .

على صافى حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الأول من البحث

تقديم

أرى أن دراسة الأعلام السابقين من أساطين الفكر وأئمة الدين ومن عباقرة فن القول وأرباب البلاغة والبراعة وترجمة حياتهم تهدف أولا وبالذات إلى إعطاء اللاحقين أو المتأخرين من طلاب المعرفة ورواد الأدب صوراً ناطقة معبرة تمثل — فى مطابقة تصدق على قدر جهد الباحث — شخصيات أولئك المتقدمين من الجهابذة الناقدين والعلماء المحققين والشعراء المفلقين والكتاب الضالعين والخطباء اللسن المصاقع . فهى — أعنى تلك الصورة المتحصلة من دراسة أولئك الأفذاذ — تجسم فيما تحتوى عليه من ملامح وقسمات عواطفهم وإحساساتهم وتبين أهواءهم ، وتفصل آراءهم ، وتكشف عن عقلياتهم وتبرز إلى حيز الوجود الفكرى والثقافى طاقاتهم العلمية وملكاتهم الفنية . فينضاف بذلك لبنة أو لبنات جديدة فى بناء العلم وصرح الفن ودنيا الأدب . وبالتالى يفيد من ذلك فائدة مرجوة طلاب المعارف وعشاق الآداب . وكل ذلك لا يجيء على الوجه المرضى ولا يتأتى منه الغرض إلا إذا كانت دراسة العالم أو الأديب وترجمة حياته قائمة على التدبر والتأمل والفهم الصحيح .

ونحن إذا أردنا أن تكون أفهامنا لأولئك الأشخاص أدنى إلى الصحة وأقرب إلى الصواب ، وأحكامنا عليهم أدخل فى الإنصاف والسداد فإن علينا أولا أن نجمع ما خلفوه من نصوص وأقوال حتى نستوعب كل ما أمكننا أن نصل إليه من ذلك أو نقف عليه ثم نحقق تلك النصوص ونتثبت من صحة نسبتها إلى قائليها . وبعد ذلك ننظر بعين التحقق والتثبت والنقد والتمحيص فيما قيل فى حق موضوع الدرس أو الترجمة من أحكام وآراء من الذين هم عاصروه وخالطوه أو الذين هم ترجموا له من الذين لم يلقوه ولا رأوه وإنما سمعوا به وقرءوا عنه .

وأخيراً وليس آخراً نتفهم العصر الذى كان يعيش فيه المترجم له أو من اختير موضوعاً للبحث العلمى والتحقيق الأدبى كالذى نحن بصدده فى هذا البحث من دراستنا لابن دقيق العيد .

ولست أعنى بالعصر الزمان أو الشهور والأيام وإنما أقصد تلك العناصر والمقومات التى تتألف منها حياة الجماعة البشرية وهى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وإننا حين ندرس العصر على هذا الوجه إنما ندرسه لأمرين هما أولا : كون الإنسان كائنا حيًّا يتفاعل فى حياته الفكرية والجسمية مع الوسط الذى يعيش فيه . ولست أريد أن أنساق فى هذه المسألة وراء أولئك العلماء الذين بالغوا فى تصويرهم لمدى ارتباط الإنسان ببيئته ووسطه إذ زعموا أنه ليس إلا أثراً أو نتيجة لتفاعل عناصر البيئة المادية والمعنوية . وإنما أقول فقط إن الإنسان يتأثر بالغ التأثر بما يحدث أو يقع حوله من أحداث وما يكتنف وجوده من مظاهر الحياة الإنسانية وأوضاع الجماعة البشرية ثم هو يتأثر إلى حد كبير بما تكون عليه حال أرض الوطن الذى يعيش فيه من سهولة وانبساط يجعل الحياة فيها سهلة ميسورة . أو وعورة وصعوبة تجعل الحركة والتنقل بين بقاعها عسيرة مضنية . وذلك إذا ما كانت هذه الأرض أو تلك البلاد تكثر فيها الجبال والأودية أو الصحارى والقفار . وكذلك يكون تأثره بالغاً بطبيعة الجو أو المناخ الذى يظلله فى ذلك الموطن إذ لا يستطيع ذو عقل أن ينكر ما لبرودة الجو أو حرارته من تأثير على الأجسام والأبدان والنفوس والميول والرغبات والسلوك والأخلاق .

وأما السبب الثانى الذى من أجله نكلف ونعنى إلى حد كبير بدراسة عصر ذلك الشخص المقصود بالبحث أو الترجمة ، فهو أن الإنسان معقد فى حياته وتصرفاته . وعلماء النفس يعترفون بهذا ويقرونه . فهو — أعنى الإنسان — كثيراً ما يقول بلسانه ما ليس فى قلبه . ومن هنا كان لعصر الشاعر أو الأديب دخل كبير فى تفسير ما قد يعترض الباحث فى تفهمه شخصية من تصدى له بالدراسة من مشاكل منشؤها ما قد يبدو من تناقض فى أقواله وأشعاره

أو سلوكه وأفعاله . وبالجملة فإن على الباحث الذى يريد أن يخرج للناس صورة صادقة تنطبق تمام الانطباق على ذلك الشاعر أو الأديب الذى يختاره موضوعاً للبحث والدراسة وبخاصة إذا أراد أن يقدم ذلك البحث إلى إحدى الجامعات كرسالة يرجو أن يمنح بمقتضاها درجة علمية فإن عليه والأمر كذلك أن يجمع كل ما وصلت إليه يده من نصوص وأقوال تنسب إلى الشخص الذى هو موضوع البحث والدراسة ثم يحقق تلك النصوص ويتثبت من صحة نسبتها إليه . وبعد ذلك يتبين الظروف والأحوال التى قيل فيها ذلك النص ثم ينظر فيما يقال فى حق ذلك الشاعر أو الأديب من آراء أو أحكام تكون له وقد تكون عليه : سواء أكان أصحاب تلك الأحكام أو الآراء ممن عاصروه وقدر لهم لقياه والأخذ عنه أم لم يقدر لهم أن يلقوه ولكن سمعوا به وقرءوا عنه . أو كان أصحاب تلك الآراء والأحكام ممن جاءوا بعده فترجموا له وأرخوه . ولكن الفريق الأول فى رأيى أصح رأياً وأصدق حديثاً .

ثم بعد ذلك تأتى أهمية العصر ومكانته بالنسبة للمنهج العلمى الصحيح الذى يترسمه الباحث فى تحقيق شخصية موضوع الرسالة . وإن كان العصر يجىء متقدماً فى ترتيب الرسالة وتبويبها فى أكثر الأحيان فإنه ليس معنى ذلك أن العصر يحتل بالجدارة والاستحقاق من الوجهة المنهجية مكان الصدارة من البحث أو الرسالة إنما هو فى الواقع ونفس الأمر لمجرد الترتيب والتنظيم فقط . فتقديم العصر إذن فيما أعتقد سواء أكان ذلك فى رسالتى أو رسائل الآخرين ترتيب شكلى أو ظاهرى . وبناء على هذا يكون العصر متقدماً فى الرسالة أو الكتاب من الوجهة المنهجية لفظاً متأخراً معنى ورتبة على حد تعبير النحاة .

وقد التزمت بكل دقة وأمانة ذلك المنهج فى هذه الرسالة فجمعت النصوص وحققتها ونظرت فى كل ما قيل فى شأن ابن دقيق العيد ممن عاصروه أو لم يعاصروه وبعد ذلك تعرفت أوضاع الحياة التى كانت تسود العصر الذى عاش فيه ابن دقيق العيد . وبناء عليه فقد جاء القسم الأول من هذه الرسالة وهو الذى تناولت فيه بالبحث والتحقيق حياة ابن دقيق العيد وتفهم جوانبها فى أربعة

فصول . الفصل الأول فى عصر ابن دقيق العيد وقد تكلمت فيه بإيجاز لا تفريط فيه عن مقومات ذلك العصر وعناصره وهى كما هو معلوم بالضرورة لدى جميع الباحثين والمحققين أربع ، الجانب الأول . الظروف السياسية . الثانى — الأحوال الاقتصادية . الثالث الأوضاع الاجتماعية . الرابع — الحياة الثقافية .

وفى الفصل الثانى مولد ابن دقيق العيد ونسبه ووصف حياته بوجه عام .

وفى الفصل الثالث أوضحت شخصيته العلمية والفقهية ، وخلصت فيه إلى القول بأنه كان ضالعاً فى مختلف العلوم اللغوية والشرعية ، وأنه كان حاذقاً فى المعقول والمنقول و ذلك هو ما ينبغى توفره فى الأئمة المجتهدين . الأمر الذى حملنى على القول بأن ابن دقيق العيد إمام مجتهد لا فقيه مقلد . ولم أكن منفرداً فى هذا الرأى وإنما سبقنى إليه العلامة السيوطى إذ ذكره فى كتابه[١] « حسن المحاضرة» ضمن من كانوا فى مصر من الأئمة المجتهدين ولم يذكره فى عداد الفقهاء المقلدين .

وفى الفصل الرابع تكلمت عن ابن دقيق العيد الأديب الشاعر وانتهيت فيه بعد تتبع أشعاره وأقوال السابقين فيه — إلى القول بأنه كان شاعراً مجيداً وكاتباً بارعاً وخطيباً بليغاً وبينت الفنون التى مارسها وأنشأ فيها القريض .

---

(١) جـ ١ ص ١٧٤ .

الفصل الأول

عصر ابن دقيق العيد

١ ـ الجانب السياسى

لما كان ابن دقيق العيد قد ولد سنة خمس وعشرين وستمائة ومات سنة اثنتين وسبعمائة هجرية . أى أنه ولد ودولة الأيوبيين لا تزال مسيطرة على ربوع مصر والشام ، ومات ودولة المماليك فى أوج عظمتها وعنفوان قوتها . لما كان الأمر كذلك كان الذى يعنينا فى بحثنا هذا هى تلك الفترة التى عاشها شيخنا تقى الدين وهى تنتظم أخريات الدولة الأيوبية وأوائل عصر المماليك . هذا والمعلوم من التاريخ أن صلاح الدين الأيوبى هو الذى أقام فى مصر دولة الأيوبيين على أنقاض دولة الفاطميين ثم ورث عن السلطان نور الدين محمود ابن زنكى بلاد الشام . وهو الذى فتح عكا وانتصر فى حطين ، واستعاد بيت المقدس من أيدى الصليبيين . فلما مات سنة تسع وثمانين وخمسمائة آل الأمر من بعده فى مصر والشام والجزيرة وإقليم ديار بكر وبلاد اليمن إلى أولاده[١] وإخوته نذكر منهم أهمهم وأعظمهم شأناً الملك العزيز أبا الفتح عثمان بن صلاح الدين فى مصر والملك الأفضل السلطان نور الدين على النجل الأكبر لصلاح الدين فى دمشق وما حولها والظاهر غازى فى حلب وأعمالها . والعادل أبا بكر أخا صلاح الدين فى الكرك والشوبك وبلاد جعفر وبلداناً كثيرة بشط الفرات . والسلطان ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخا السلطان صلاح الدين فى اليمن بمعاقله ومخاليفه .

هذا وقد وصف ابن كثير أحوال الدولة الأيوبية بعيد وفاة صلاح الدين[١] بكلمة موجزة جامعة فقال[٢] .

---

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٦ .

(٢) نفس المرجع جـ ١٣ ص ٦ .

« ثم شرعت الأمور بعد موت صلاح الدين تضطرب وتختلف فى جميع هذه الممالك (يعنى بلاد مصر والشام والشرق وإقليم ديار بكر والجزيرة جميعاً) حتى آل الأمر واستقرت الممالك واجتمعت الكلمة على الملك العادل أبى بكر صلاح الدين وصارت المملكة فى أولاده » . ومعنى هذا أن حكم مصر والشام انتقل من صلاح الدين وبنيه إلى أخيه العادل أبى بكر بن أيوب . فلما مات آل الأمر إلى أولاده . وقد كان أولاد العادل هذا فى مبدإ أمرهم أكثر اتفاقاً[١] فيما بينهم من أبناء صلاح الدين . لكنهم ما لبثوا أن تنازعوا[٢] واختصموا وقاتل بعضهم بعضاً[٣] . الأمر الذى أودى بسلطانهم وجعل الأمر يخرج منهم إلى أيدى المماليك . وكان ذلك سنة ثمان وأربعين وستمائة ، حيث كان السلطان طورانشاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب قد أساء معاملة بعض المماليك وقسى على أرملة أبيه شجرة الدر ، وهى التى أخفت موت الملك الصالح لتحفظ[٤] الملك لابنه طورانشاه الذى كان وقت موت أبيه بحصن كيفا[٥] فى بلاد الموصل . فلما تسلطن طورانشاه[٦] وظن أن الأمر قد استتب له اضطهد كما أسلفت جماعة من أمراء المماليك وأساء معاملة شجرة الدر وهى التى حفظت له سلطان أبيه ، فغضب لذلك أكثر المماليك واتفق رأيهم على التخلص منه وانتهى الأمر بقتله .

وقع ذلك كله[٧] بعد أن أبلى طورانشاه بلاء حسناً وبذل جهداً مشكوراً فى قتال الفرنجة مما كان له أكبر الأثر فى انتصار المصريين وهزيمة الصليبيين هزيمة نكراء . فسر بذلك المسلمون وابتهجوا جميعاً . وفى تلك المعركة المشرفة أسر

---

(١) ابن الأثير — الكامل جـ ١٢ ص ٢٣٠ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٣٠ .
(٣) السلوك للمقريزى جـ ١ ص ٢٧٥ .
(٤) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٤٣ .
(٥) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٤ .
(٦) المرجع السابق جـ ٦ ص ٣٧٠ .
(٧) المرجع السابق جـ ٦ ص ٣٦٤ — ٣٧١ .

طورانشاه لويس التاسع ملك فرنسا وسجنه فى دار ابن لقمان وجعله فى السلاسل والقيود ووكل به الطواشى صبيحا . وفى ذلك يقول الشاعر المصرى ردًّا على الملك لويس هذا حين أراد أن يعود إلى مهاجمة مصر فيما بعد . وكان قد أرسل إلى مماليك مصر رسالة يسبهم فيها ويتوعدهم . قال الشاعر فى ذلك قصيدة جاء فيها قوله[١] :

دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشى صبيح

وبعد قتل طورانشاه بايع المماليك شجرة الدر بالسلطنة ، وبقيت تسوس الدولة وتدير دفة الحكم فى مصر زهاء ثمانين يوماً . ولولا أن أنكر ذلك خليفة بغداد على أمراء مصر فى خطاب أرسله إليهم يلومهم فيه على توليتهم أمر المسلمين امرأة ، وقال فيما قال لهم فيه : « إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير لكم رجلا » . فلولا ذلك لبقيت شجرة الدر سلطانة إلى ما شاء الله .

ومهما يكن من أمر فقد خلعت[٢] شجرة الدر نفسها وتزوجت بعز الدين أيبك كبير أمراء المماليك البحرية الذين اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب وعددهم ألف وأسكنهم جزيرة الروضة ومن هنا عرفوا بالبحرية نسبة إلى بحر النيل . كما كانوا يدعون أيضاً باسم المماليك الصالحية نسبة إلى سيدهم الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وقد بايع المماليك عز الدين أيبك بالسلطنة وتلقب بالملك المعز . وبذلك بدأ عصر المماليك . وكان ذلك كله سنة ثمان وأربعين وستمائة . وابن دقيق العيد فى الثالثة والعشرين من عمره . أعنى أنه قد أدرك من عمر الدولة الأيوبية فترة كانت على قصرها حافلة بالأحداث والتطورات ففيها كثرت الحروب بين المسلمين والصليبيين فى مصر والشام . إذ كان الصليبيون قد عاودهم الطمع فى البلاد الإسلامية لما رأوه من تنازع وتخاصم بين الأيوبيين من جهة وبينهم

---

(١) ابن اياس — تاريخ مصر جـ ١ ص ٨٧ وانظر ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٩ .

(٢) ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٧٤ .

وبين أعقاب نور الدين زنكى فى المشرق وبلاد الموصل من جهة أخرى . كما أن التتار أيضاً طمعوا فى بلاد المسلمين وشجعهم على ذلك ما رأواه من ضعف الدولة الإسلامية وتفرق أقاليمها واهتمام كل سلطان أو أمير بما هو فى حوزته دون غيره من أرض الإسلام . وأكثر من هذا فقد كان أولئك الأمراء والسلاطين — كما أسلفت — يقاتل بعضهم بعضاً . الأمر الذى أضعف شوكة المسلمين وأطمع فيهم أعداءهم من الفرنجة والروم والتتار . وأول احتكاك وقع بين الأيوبيين والتتار كان فى بلاد الجزيرة سنة ثمان وعشرين وستمائة[١] .

وبالجملة فقد كانت هذه الفترة التى شهدها ابن دقيق العيد من أيام الأيوبيين فترة عصيبة اضطربت فيها الأمور السياسية والعسكرية وتفاقمت فيها الحروب وكثرت المعارك واشتدت الخصومات واتسع النزاع بين الملوك والسلاطين فى مصر والشام .

وأكثر من هذا فقد كان السلطان يقتل ابن عمه وأخاه . كالذى وقع بين الملك الصالح نجم الدين أيوب وأخيه الملك العادل الصغير ، فقد كان العادل يريد أن يقتل أخاه الصالح ليطمئن على ملكه ولكنه لم يستطع لأن صاحب الكرك الملك الناصر داود[٢] الذى كان قد سجن الصالح نجم الدين أيوب لم يمكن العادل الصغير من ذلك . فلما نصر الجند الصالح نجم الدين أيوب على أخيه العادل قبض الصالح عليه وسجنه ثم أرسل إليه من قتله فى سجنه . وأخيراً انتهت دولة الأيوبيين على تلك الصورة البشعة المؤسفة الأليمة . حيث قتل مماليك الصالح ابنه طورانشاه وتركوا جسده فى العراء مدة حتى تشفع فى دفنه رسول خليفة بغداد[٣] . وبايعوا بعده أرملة أبيه شجرة الدر . وهى وإن كانت من المماليك إلا أن بعض المؤرخين يعدون مدة حكمها استمراراً لدولة الأيوبيين . والبعض

---

(١) ابن كثير — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٢٨ .

(٢) المقريزى — السلوك جـ ١ ص ٢٩٠ .

(٣) ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧١ .

الآخر يعدها بداية عصر المماليك . وسواء كانت استمراراً للأيوبيين أو بداية للمماليك فإن الطريف فى ذلك هو أن امرأة كانت مملوكة حكمت المسلمين وتولت أمرهم مدة ثلاثة أشهر على وجه التقريب . وفى مصر من كان فيها من أئمة الدين وعلماء الفقه وحفاظ الحديث ولم يبد أحد منهم أى اعتراض على تولية شجرة الدر أمر المسلمين .

أوائل عصر المماليك

ومهما يكن من شىء فإن المماليك قد بايعوا بعد أن خلعت شجرة الدر نفسها عز الدين أيبك التركمانى وتلقب بالملك المعز ولكن شجرة الدر — التى كانت قد تزوجت به — لم تلبث أن حنقت عليه بسبب اهتمامه بغيرها من النساء فعملت على قتله فى الحمام[١] وأعانها على ذلك بعض الخدم . فآل الأمر من بعده لابنه على وكان صغير السن فجعلت أمور الدولة إلى سيف الدين قطز . أعنى أنه أصبح وصيًّا على العرش حسب تعبير عصرنا الحاضر . لكنه لم يلبث أن اغتصب السلطنة لنفسه .

وسيف الدين قطز هذا هو الذى انتصر على التتار وهزم جموعهم فى معركة عين جالوت ولولا أن نصر الله قطز وجنوده فى هذه المعركة لتمت للتتار الغلبة على مصر والشام ولعاثوا فى الأرض فساد كما فعلوا من قبل فى بغداد . ومعنى هذا أن سيف الدين قطز يستحق الشكر والثناء من المسلمين أجمعين . كما أنه أصبح بعد تلك المعركة أهلا للسلطنة ولكن الظاهر بيبرس قد وثب عليه وهو فى طريقه إلى القاهرة وقتله من غير ذنب اقترفه . ثم تبوأ السلطنة مكانه فاستاء من ذلك المصريون واغتموا[٢] غير أن الظاهر لم يلبث أن ظفر بحب الشعب وتأييده إذ أعاد إلى الوجود سنة تسع وخمسين وستمائة الخلافة العباسية بعد أن قضى عليها

---

(١) ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٣ .

(٢) المقريزى — السلوك جـ ١ ص ٤٣٧ .

التتار باستيلائهم على بغداد وقتلهم الخليفة المستعصم بالله سنة ست وخمسين وستمائة وبذلك يكون الظاهر بيبرس قد أضفى على حكمه وحكم من جاء بعده الصبغة الشرعية ومن قبل كان المماليك يعتبرون غاصبين السلطة من بنى أيوب الذين هم كانوا يستمدون شرعية حكمهم من الخليفة العباسى فى بغداد . وبالرغم من وجود تلك الخلافة بين ظهرانى المماليك فقد ظل حال الملك وأمر السلطان على ما كان عليه من قبل . مملوك يقتل سيده وأستاذه ويتولى مكانه فلا يلبث أن يثب عليه هو أيضاً مماليكه والمقربون إليه فيقتلونه أو يخلعونه ويولون غيره . وهلم جرا .

والسبب فى ذلك يرجع فيما أعتقد إلى أن المماليك لم يكونوا يقرون باستحقاق أى إنسان غيرهم بالولاية من الوجهة الشرعية وإنما كانوا يرون أن السلطنة أو ولاية أمر المسلمين هى حق لكل من توفرت له القوة وواتته الفرصة أو هيأت له الظروف الجلوس على أريكة الملك وتبوء السلطان . ومعنى هذا أن المماليك كانوا يتنازعون الولاية فيما بينهم كأسلافهم الأيوبيين . غير أنه لم يكن ليؤدى إلى ضعف الدولة وكسر شركتها وتمكين الأعداء من التغلب عليها كما كانت الحال فى عهد بنى أيوب . لا ، بل إن دولة المماليك الأتراك كانت رغم تشاحن رؤسائها وتنازع أمرائها قوية مرهوبة ذات شوكة وسلطان تهزم كثيراً ولا تنهزم إلا قليلا فهى بحق دولة قوة وبأس وغلبة . هذا وقد كان عصر المماليك استمراراً للعصر الأيوبى من حيث الحرب والقتال فقد ظلت الحروب الصليبية والتتارية طيلة هذا العصر على أشدها .

وبالجملة فإن المماليك قد أمضوا أيامهم فى محاربة الصليبيين والتتار وقد أبلوا بلاء حسناً فلولا المماليك لتم للمغول التغلب على جميع البقاع الإسلامية فى مصر والشام وشبه جزيرة العرب . فالمماليك هم الذين انتهت فى أيامهم الحروب الصليبية ، وهم الذين اضطروا سلاطين التتار إلى اعتناق الإسلام . ومما نلحظه أيضاً من وجوه الفرق بين أخريات العصر الأيوبى وأوائل عصر المماليك أن

الأيوبيين كانوا يتركون محاربة الصليبيين ويشتغلون بقتال بعضهم بعضاً . بل إن منهم من عقد صلحاً مع الصليبيين ليتفرغ لقتال ابن عمه وأخيه كما فعل الكامل بن العادل إذ أعطى بيت المقدس للفرنجة صلحاً[١] كى يستطيع أخذ دمشق من ابن عمه الملك داود بن الملك المعظم . أما المماليك فإنهم كانوا يتناسون[٢] — عند لقاء العدو — ما قد يكون بينهم من ضغائن وأحقاد ومخالفات ومنازعات حتى يفرغوا من قتال عدوهم . فإذا قفلوا راجعين إلى مصر وثب بعض الأمراء المضغنين على السلطان فقتلوه وولوا قاتله[٣] مكانه كما حدث مع المظفر قطز عقب انتصاره على التتار فى موقعة عين جالوت المشهورة على ما سبق أن ذكرناه، وقصارى القول فى هذا العصر — عصر شيخنا تقى الدين — هو أنه كان مليئاً بالتقلبات والتطورات السياسية والدولية . وقد شهد بنفسه عن كثب أحداثاً جساماً ذات شأن عظيم وخطر كبير أثناء توليه القضاء . فقد حدث على سبيل المثال أن وثب حسام الدين لاجين وأنصاره على السلطان كتبغا المنصورى وهم فى طريقهم إلى مصر فأرادوا قتله فلما علم بذلك الملك العادل كتبغا رجع هارباً إلى دمشق . وتمت الولاية لحسام الدين لاجين ولكنه لم يلبث أن قتل هو ونائب سلطنته منكوتمر سنة ثمان وتسعين وستمائة هجرية وفى سنة ٦٩٩ هـ خرج السلطان الناصر بن قلاوون إلى الشام لقتال التتار وكان معه فى هذه الحملة القضاة الأربعة ومن بينهم الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد[٤] وقد عاد عسكر الناصر إلى مصر منهزمين . ومما يجدر ذكره أن الأمير سلار وبيبرس الجاشنكير أرادا أن يجمعا من الشعب مالا باسم السلطان لتقوية العسكر فأفتى بجواز ذلك ابن الخشاب . أما ابن دقيق العيد فلم يجزه وامتنع[٥] عن الإفتاء لأنه كان يعلم أن الأمراء وأرباب الدولة يستحوذون على المال والشعب فى حالة اقتصادية سيئة .

(١) ابن الأثير — الكامل جـ ١٢ ص ٣١٤ .
(٢) المقريزى — السلوك جـ ١ ص ٨٨٤ .
(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٤٣٦ .
(٤) ابن اياس — بدائع الزهور جـ ١ ص ١٤٠ .
(٥) المقريزى — السلوك جـ ١ ص ٨٩٨ .

وأيًّا ما كان فإن ابن دقيق العيد قد تأثر بهذه الأحداث وغيرها مما وقع فى أثناء توليه القضاء تأثراً مباشراً فى أحكامه وأقواله ومواقفه من الأمراء والسلاطين . على ما سوف نبسطه فى الفصل الثانى .

مكانة مصر وعلاقتها الخارجية

هذا وخير شىء نختتم به كلامنا عن الناحية السياسية فى عصر ابن دقيق العيد أن نتحدث عن مكانة مصر السياسية وعلاقاتها الخارجية بدول الشرق الأوسط ذات الشأن فى ذلك العصر . وذلك على سبيل الإيجاز والاختصار فأقول : كانت مصر طيلة عصر الأيوبيين والمماليك تقوم بدور الزعامة والقيادة للعرب والمسلمين ولا غرو فإن صلاح الدين الأيوبى الذى أقام دولته فى مصر على أنقاض الفاطميين قد بسط سلطانه على مصر والشام وديار بكر والموصل حتى الفرات ؛ أعنى أنه جمع هذه الأقاليم وتلك الأقطار تحت قيادة واحدة كى يستطيع المسلمون تحت قيادته أن يردوا عما بقى فى أيديهم من البلدان عدوان الفرنجة وغارات الصليبيين وأن يستردوا ما كان الصليبيون قد أخذوه من بلدان المسلمين ، وأقاموا فيها دويلات وإمارات كعكا والكرك وبيت المقدس وعسقلان وصور وغير ذلك من مدن الشام .

ويذكر أستاذنا الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه « دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين »[1] أن فكرة جمع كلمة المسلمين وتوحيد جيوشهم تحت قيادة موحدة مصدرها السلطان نور الدين محمود بن زنكى غير أنها لم تتحقق بالفعل إلا على يدى صلاح الدين الذى أضحى بفضل ذلك رمزاً للبطولة ومثلا يحتذى فى لم الشعث وجمع الصفوف وإثارة الشعور بالقومية فى العواطف والنفوس .

هذا على أن أمور الدولة اضطربت بعد وفاة صلاح الدين وضعفت شوكتها

---

(١) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ص ٨٦ — ٨٧ .

وعاد الصليبيون إلى مهاجمة مصر واحتلال كثير من أرض الشام كيافا وعكا وصور وغير ذلك كثير وذلك بسبب اختلاف أبناء صلاح الدين وتنازعهم الأمر فيما بينهم ، غير أن الأحوال لم تلبث أن عادت إلى شيء من الهدوء والاستقرار واستعادت دولة الأيوبيين كثيراً مما كان لها فى عصر صلاح الدين من قوة وهيبة وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف وذلك بفضل جهود الملك العادل أبى بكر أخى صلاح الدين الذى ولى السلطنة فى مصر بعد السلطان العزيز عثمان بن صلاح الدين ؛ فقد اقتفى العادل أثر أخيه صلاح الدين فى جمع الشمل وتوحيد الكلمة حتى أصبحت مملكته تمتد من أقصى بلاد مصر واليمن والشام والجزيرة إلى همذان كلها[١] .

هذا ويذكر أبو المحاسن فى كتابه النجوم الزاهرة[٢] أن الكامل سلطان مصر مات بقلعة دمشق سنة ٦٣٥ هـ وكان نائبه على الشرق وإقليم ديار بكر ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ونائبة على مصر ابنه الملك العادل أبا بكر.. وهذا يعنى أن مصر والشام وما كان يسمى بالجزيرة وإقليم ديار بكر وهى الآن فى شمالى العراق كانت تكوّن جميعاً دولة واحدة . وكذلك ظلت مصر والشام والجزيرة تحت سلطان واحد فى أيام الصالح نجم الدين أيوب إذ يذكر المؤرخون ومن بينهم ابن كثير أن الملك الصالح ترك دمشق إلى القاهرة فى المحرم سنة ٦٤٧ هـ ودخل دمشق بعده نائباً عنه فى شهر صفر جمال الدين ابن يغمور وكان ابنه طورانشاه وقتذاك نائبه على حصن كيفا ببلاد الموصل[٣].

وفى عصر المماليك أصبحت مصر نقطة انطلاق القومية الإسلامية ومحط أنظار المسلمين أجمعين إذ جعلوا يفدون إليها من كل فج وصوب علماء وشعراء وأمراء إذ سقطت بغداد فى أيدى التتار وقتل آخر خلفاء العباسين المستعصم بالله آخر خلفاء بغداد . الأمر الذى جعل المسلمين يلتفون حول سلطان مصر

---

(١) ابن كثير – البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٦٩ .

(٢) جـ ٦ ص ٣٠٣ .

(٣) ابن كثير – البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٧٧ .

ليستطيعوا الوقوف فى وجه التتار وقد تم لهم ذلك فى عصر هؤلاء المماليك . وكان أول نصر ذى بال—أحرزه المسلمون—على التتار هو انتصارهم فى واقعة عين جالوت بقيادة الملك المظفر سيف الدين قطز سنة ٦٥٨[١]هـ . والقصد من هذا أن نقول إن البلاد العربية المجاورة لمصر قد أصبحت تدين لسلطان مصر كما كانت من قبل فى عهد صلاح الدين الأيوبى وأخيه العادل بالطاعة والولاء أى أن تلك البلاد جميعاً قد انضوت فى وحدة متماسكة تحت لواء واحد هو لواء السلطان فى مصر وأصبحت مصر حاضرة هذا العالم العربى ومقر خليفة الوقت على حد تعبير ابن كثير وسلطان الإسلام[٢] ففى أيام الظاهر امتد سلطان مصر إلى بلاد النوبة وبرقة وجميع ربوع الشام والحجاز واليمن وقد قال فيه بعض الأدباء .

تدبر الملك من مصر إلى يمن إلى العراق وأرض الروم والنوب[٣]

وقد جاء فى تقليد الخليفة للظاهر بالسلطنة ما نصه « وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية[٤] . » ومعنى هذا أن البلاد العربية فى الشرق الأوسط كانت تؤلف دولة واحدة عاصمتها القاهرة وهى دار خليفة الوقت وسلطان الإسلام . وفى أيام الناصر محمد بن قلاون أصبحت شبه جزيرة العرب بجميع ما فيها من أقاليم وأقطار كاليمن ونجد والحجاز والحسا والطائف منضوية تحت لواء سلطان مصر وكذلك جميع الأقطار الشامية وبلاد الروم وجبال الأكراد وحصن كيفا وبغداد وغيرها من بلاد الشرق[٥] . وإذن فيمكننا أن نقول إن القومية العربية التى استيقظت فى عصرنا الحاضر بفضل ما بذله السيد الرئيس جمال عبد الناصر من جهود مشكورة موفقة فى سبيل بعث تلك القومية وإضرام الشعور بها فى نفوس العرب فى شتى ديارهم ومختلف أقطارهم . أقول

---

(١) المصدر السابق جـ ١٣ ص ٢٢٠ — ٢٢١ .
(٢) المصدر السابق جـ ١٣ ص ٢٦١ .
(٣) المقريزى — السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٦٣٨ .
(٤) المقريزى — السلوك جـ١ ق ٢ ص ٤٥٤ .
(٥) المصدر السابق جـ ٢ ق ٢ ص ٥٣٣ .